

قصة الفلاح الفصيح

لم أكن أعرف جيدا تفاصيل قصة (الفلاح الفصيح)، إلا عندما قرأتها في موسوعة المراحل الكبير سليم حسن عن مصر القديمة، والتي تم نشرها ضمن مشروع مكتبة الأسرة في ثمانية عشر جزءا جيد الطباعة، ثمن الجزء الواحد خمسة جنيهات. وفيها يمكن للقارئ أن يتجول بين مراحل التاريخ المصرى القديم من ذاحية والحضارة المصرية القديمة من ذاحية أخرى. ومنها أيضا يحس المواطن المصري بأنه ينتمى إلى شعب عريق في الحضارة التي شيدها أجدادنا العظام، ليس فقط في ميادين العمارة والأهرامات، وإنما أيضا في النظام الإدارى والقضائى، بالإضافة إلى مجالات الآداب والفنون والأخلاق.

مختصر القصة أن فلاحا مصرياً من وادى النطرون سافر إلى العاصمة لبيع محصوله السنوى من الملح، محملاً إياه على بعض حميره. وفى الطريق اعترضه أحد موظفى الإدارة، وطمع فى تجارتها، فاعتصبها منه بحيلة دنيئة، حيث ادعى أن بعض حمير الفلاح قد أكلت بعض سنايل القمح من حقله! وزاد على ذلك بضربه وإهانته. وعلى الفور اتجه الفلاح المسكين إلى حاكم الإقليم (المحافظ) ليرفع إليه مظلمته، ويشكو ذلك الموظف المغتصب. وهناك صاغ شكواه فى لغة أدبية رفيعة المستوى، مما جعل مستشارى المحافظ يوصون بإرسالها إلى الملك نفسه، الذى رأى بدوره عدم الإسراع فى حسم القضية لئلا يكرر الفلاح أمثال تلك الشكوى من فرط الإعجاب بأسلوبه! وبالفعل ظل الفلاح يواصل كتابة شكواه حتى بلغت تسعا، كل منها يفيض حزناً وبلاغة، وتمتزوج فيها دموع الإنسان المظلوم بعبارة الحكمة العالية. وقد جاءت النهاية سعيدة، حيث أدين الموظف المغتصب، وتم شكر المحافظ ومستشاريه، وأعيد الحق إلى الرجل المظلوم، الذى استحق بكل جدارة لقب الفلاح الفصيح.

ماذا رأى العالم فى تلك القصة؟ لقد ترجمت إلى معظم لغاته، ورأى فيها المتخصصون واحدة من أجمل الوثائق الأدبية التى أنتجتها الحضارات القديمة، كما بحثوا فى ثناياها عن مصادر ثقافة ذلك الفلاح الذى نشأ وعاش فى صحراء والنطرون، أو كما يطلق عليه: وادى الملح! وركز بعض الباحثين فى الحضارة المصرية القديمة على ذلك النظام القضائى العادل الذى ضمن لفلاح بسيط أن تصل شكواه بسرعة وسهولة إلى الفرعون، ملك البلاد، ثم بالقرار الحكيم والحازم الذى عاقب المغتصب وأعاد الحق إلى صاحبه.

ويبقى من أروع الجوانب الإنسانية فى القصة أنهم عندما رأوا تأجيل الحسم فى القضية لئلا يواصل الفلاح كتابة شكواه البليغة، قرروا فى نفس الوقت أن يكلفوا من يقوم — سرا — على إعاقة الفلاح أثناء إقامته فى العاصمة دون أن يشعره بذلك! ونفس الشء فعلوه مع زوجته وأولاده بواى النطرون حتى لا يتزايد قلقهم عليه أثناء غيابهم عنهم!

وأخيراً، ما أجمل التجول فى تاريخنا وحضارتنا! والأجمل أن نتوقف عند بعض ما تحتويان عليه من جواهر لا يخبو بريقها! ولنترحم جميعاً على عالمنا المصرى الأصيل سليم حسن.